حالة الانتظار

محمود درويش

فصل آخر من كتاب عن تجربة محمود درويش الاسرائيلية

● مرة في مطار بورجيه الفرنسي ، ومرة في أحد شوارع صوفيا ...

كان مصيرك يلح عليك بتحديده . وكانت هويتك ، الغامضة على الورق والساطعة في القلب ، تطالبك بتحقيق الانسجام بينهما . وكأنك تأتي دفعة واحدة من أول العمر الى هذا السؤال : من أنت ؟

لم يكن بوسع البوليس الفرنسي أن يفهم شيئا لا يفهمه البوليس الاسرائيلي . تقول وثيقة السفر انك غامض الجنسية . وسدى تشرح لرجل الامن الفرنسي معنى هذا الغموض ، اذ لا يدفعه توضيحك الا الى استيعاب مزيد من الغموض الذي حدده زميله في تل أبيب . أين ولدت ؟ في فلسطين . وأين تعيش : في اسرائيل . اذن ، أنت غامض .

وفي غرفة التوقيف التابعة للمطار ، كنت تفكر بتهمة الغموض وتغرق في البحث عن البرهنة على هويتك . هؤلاء القادمون من الكتب القديمة لم يأخذوا وطنك فقط ، ولكنهم أخذوا وسائل انتمائك الى العالم أيضا . عندما حددوا مصائرهم كانوا يسقطون عن وجهك ملامح تعرّف العالم عليك . وصار صعبا عليك أن تشرح المسافة التاريخية ، التي تحولت الى مسافة جغرافية في ادراك العالم ، بين فلسطين واسرائيل ؟ تعرف انك فلسطيني ، ولكن فلسطين غير قائمة في منظار العالم . وحين تحاول الخروج الى هذا العالم لا بد لك من المرور في دهليز التناقض الشرس : ان تكون اسرائيليا . ولكن مكان الولادة ، والانتماء ، والرفض تحولك الى شبكة من الغموض والتناقض . اذن ، من أنت ؟.

ومرة أخرى في صوفيا . لم تواجه هنا سؤالا نظريا . كنت فضيحة وشائعة ومفارقة . ليس مهما ، هنا ، أن تدين الظروف لتبرىء نفسك . ينبغي أن يكون التاريخ العربي الحديث مكبلا في قفص الاتهام لكي ترضى بتهمة من أحد . قبل أن تجيب على سؤال القضاة : ماذا فعلت ؟ اسألهم : ماذا فعلتم من أجل أن افعل بطريقة أخرى . ومرة أخرى ، ليس هذا هو السؤال ، لان المساواة في اللافعل هي احتياطي لاستمرار الخطأ والتردي .

على بعد أمتار قليلة ، كان العلم الفلسطيني الاخضر والاسود والاحمر يظلل مجموعة من الشابات والشباب الفلسطيني القادم من كل انحاء المنفى . وكان يشكل ، في الافق ، تعويضا رمزيا عن مهانة الماضي ، والتزاما عمليا بتغيير الحاضر ، واستشرافا ملحميا للفوز بالمستقبل . ما أجملهم ! ما أجملهم !. تقترب منهم وفي نفسك مفاجآت الاستعداد للاقاة نصفك الضائع منذ عشرين سنة . وكانوا يقتربون منك وفي نفوسهم عطش الاعوام ذاتها الى النبع المحاصر . « نحن ننتظركم » .. و« نحن